القرآن وقراءته

:تطور المفاهيم عند نصر أبوزيد

جمال عمر

لحظة تغير بوصلة الخطاب الديني

كان لتجربة المد الإشتراكي بمصر، خلال خمسينات وستينات القرن الماضي، وحركات التحرر من الإستعمار في ظل محاولة إستقلاق القرار الوطني، والتنمية الداخلية. صاحب كل ذلك خطاب ديني من المؤسسات الرسمية، يُعبر عن المرحلة. مقدما فهما وتفسيرا للدين، يدعوا الى المساواة بين البشر، تُصدّر فيه نصوص مثل:"الناس سواسية كأسنان المُشط"."لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى". وأن المال مال الله ونحن خلفاء له:" العباد عباد الله والبلاد بلاد الله، فمن أحيا من موات الأرض شيئا فهو له". والدعوة الى توزيع الثروة والمال حتى لا يكون:"دُولَة بين الأغنياء منكم" (الحشر:7). والمال مصدره العمل والعرق. وقصيدة أمير الشعراء أحمد شوقي في مدح الرسول الكريم، التي تغنت بها أم كلثوم، تتصدر المشهد:"الإشتراكيون أنت إمامهم لولا دعاوى القوم والغلواء". وكتابات عن إشتراكية أبي ذر الغفاري، وانحيازه للفقراء. بل تجد عضوا من أعضاء جماعة الإخوان في سوريا: مصطفى السباعي بكتابه "إشتراكية الإسلام". و كتاب سيد قطب في نهاية الأربعينيات:"العدالة الإجتماعية في الإسلام". وفي مجال الصراع مع المشروع الصهيوني، كان الموقف السياسي:"ما أُخذ بالقوة لا يُسترد إلا بالقوة". فيصدر الخطاب الديني الرسمي آية:"و أعدوا لهم ما استطعتم من قوة". تتصدر المشهد، تعبيرا عن موقف الدين. مساندا للخطاب السياسي. وبأن القتال شر لابد منه:"كُتب عليكم القتال وهو كره لكم"(البقرة:54).

حينما تغيرت بوصلة تحيزات الخطاب السياسي في السبعينات والثمانينيات: منقلبة على تحيزات الفترة السابقة عليها. داعية إلى الإنفتاح الإقتصادي، والرأسمالية الوطنية، والمِلكية الخاصة، وتشجيع القطاع الخاص. تحولت بوصلة الخطاب الديني وفهم وتأويل الدين، أيضا. لنكتشف أن القرآن يتحدث عن التفاوات الطبقي بين الناس:"نحن قسّمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات، ليتخذ بعضهم بعضا سخريا"(الزخرف:32) وكلمة درجات تفسر على أنها الدرجات بالمعنى الإقتصادي/الإجتماعي، بمعنى التفاوت الطبقي. ويصبح الدين لا يتعارض مع الرأسمالية، ويتصدر الصورة ما نُسب الى النبي عليه السلام:"تسعة أعشار الرزق في التجارة". وحين اتجه النظام السياسي الى التعاهد مع العدو. تتصدر المشهد:"وإن جنحوا للسلم فاجنح لها"(الأنفال:61) فيكون الخطاب الديني تابعا للخطاب السياسي و داعما للسياسة. وأيضا المعارضون السياسيون يستخدمون الدين وتفسيره وسيلة في صراعهم السياسي مع السلطة. إنه الصراع على نفس الأرضية، أرضية استخدام الدين وتوظيفه لأهداف سياسية سواء من جانب، السلطة أومعارضيها. لمجرد أهداف أيديولوجية.

لماذا حدث هذا التحول؟

في هذه اللحظة المعرفية وسياقها الثقافي والسياسي/الإجتماعي، كان دخول نصر أبوزيد الى الجامعة وهو في الخامسة والعشرين من العمر، عام ثمانية وستين من القرن الماضي، عاما بعد الهزيمة. وهو من نشأ على الميل لفكرة الإخوان والتأثر بكتابات سيد ومحمد قطب عن الرؤية الإسلامية للعالم. و "مشاهد يوم القيامة في القرآن"، و "التصوير الفني في القرآن". لكنه كان على تواصل فكري مع مدرسة الشيخ أمين الخولي[1]، في التفسير الأدبي للقرآن. وأيضا كان متبنيا لشعارات نظام يوليو عن العدالة الإجتماعية. فشهد عملية التحول في الخطاب الديني هذه. من شعار الى آخر، ومن اتباع مفردات خطاب سياسي في الستينات الى مفردات خطاب آخر في السبعينات. وكان السؤال عنده: لماذا حدث هذا التحول؟ وقضية العلاقة بين المفسر والنص، وما هو دور المفسر وما دور النص في تشكيل معنى النص تعمق إنشغاله بها.

لكن نصر كان تحيزه واضحا للعدالة الإجتماعية، وإلى الفقراء والى إستقلال القرار الوطني. وإن كان ينتقد غياب الديمقراطية السياسية، والحرية، في تجربة الستينيات، إلا أنه ضد التطبيع والسلام المنقوص مع العدو وضد الإنفتاح "السداح مداح"[2]. وأيضا ضد الهجمة السلفية الآتية مع أموال البترول الخليجي وقيم الحياة القبلية الصحراوية. حيث أصبح الماضي وقراءة التراث الذي تم إختصاره في جوانب منه هي الأكثر فقرا من ناحية إسهامها في التقدم. فكانت العودة عنده أيضا للتراث وللماضي، لمحاربة هذه الهجمة السلفية التي ازداد من خلالها الفكر إنغلاقا بعد هزيمة العرب العسكرية وبأثر ضخ أموال البترول. فكمواجهة لهذه الهجمة التي تختصر التراث في تراث أحمد ابن حنبل وابن تيمية وتلميذه ابن القيم الجوزية، وجهود محمد ابن عبد الوهاب، دينيا، بصورتها السلفية التقليدية. وشكلها السياسي في جماعات الإسلامويين*، لتديين السياسة والتي تحولت الى جماعات للعنف. كانت العودة لتراث المعتزلة الكلامي كمنظومة عقيدية من التراث[3] تختلف عن ما هو قادم من تراث حنبلي، وما هو سائد من تراث أشعري. فكانت كتب المعتزلة التي تم اكتشافها في اليمن في نهاية الأربعينات. قد تم طبعاتها منذ ما يقرب من عقد من الزمان حين بدأ نصر دراسته للماجستير، التي اختار لها موضوع. بحيث يكون له قدَم في البلاغة العربية وأخرى في الدراسات الإسلامية. فبحث دور المعتزلة في نشأة وتشكيل مفهوم

---

[1]– كان أول مقال نُشر لنصر وهو في التاسعة عشرة، ويعمل فني لاسلكي بالمحلة، كان قد نشره الشيخ أمين الخولي بمجلة الأدب التي كان يحررها، وكان بعنوان أدب العمال والفلاح. عام 1962م

[2]– التعبير الذي استخدمه الأستاذ أحمد بهاء الدين للتعبير عن إجراءات الإنفتاح لسلطة الرئيس الراحل محمد أنور السادات. وتعبير الإسلامويون يستخدمه ، علي مبروك كبديل لتعبيري الإسلاميين أو تعبير المتأسلمين.

[3]– أضع هذه المرحلة حتى منتصف الثمانينات كمرحلة الإستخدام الأيديولوجي للتراث عند نصر أبوزيد سواء بتراث المعتزلة أو تراث التصوف، أو التراث اللغوي والبلاغي عند المبدعين من الأسلاف. في مواجهة السلفية الحنبلية واستخدامها للتراث استخدام أيضا نفعي لأهداف أيديولوجية

المجاز[4]، كمفهوم جذر في البلاغة. وكمفهوم محوري في تأويلات المعتزلة. يدرس ذلك من خلال علاقة المفسر بالنص، في السياق السياسي الإجتماعي الثقافي للعصر.

حاول نصر التدليل على دور الصراعات السياسية والإجتماعية والدينية، بين فِرق المسلمين، ودورها في نشأة الإعتزال. وقلل من دور التأثيرات الخارجية وما أثارَه خطاب الإستشراق من دور الفلسفات اليونانية في هذه النشأة. فأدرك نصر من خلال دراسته أهمية ودور استخدام مصطلح التأويل غير مصحوب بالصورة السلبية السائدة في عصرنا، الناظرة الى التأويل على أنه خاضع لأهواء الفرد المؤول. وتفضيل التفسير عليه بدعوى أنه موضوعي لا تتدخل فيه ذاتية المُفسر. إلا أنه أدرك أيضا أن التأويل والتفسير النفعي حسب رأي الفرد المُسبق، ليس قاصرا على عصرنا لفساد الزمم كما هو سائد من تصور. بل أن القدماء أيضا فعلوا ذلك. فعلها المعتزلة في جعل النصوص تنطق بمبادئهم الفكرية المُسبقة وكذلك فعلها خصومهم فجعلوا النصوص تنطق بردودهم الفكرية على المعتزلة. ووجد صعوبة في تحليل رؤية المعتزلة في اللغة، فوجد تناثر لهذه الرؤية نتيجة للطبيعة الجدالية في طريقة كتابة المعتزلة كتبهم كردود على أسئلة متصَورَة لخصومهم. وبدأ يتواصل مع قضية طبيعة القرآن والجدل الذي دار بين المعتزلة وخصومهم حولها، وكيف توقف الحوار حولها في القرون العشرة الأخيرة. وأدرك أهميتها ومحوريتها في تشكيل المفاهيم السائدة في الفكر الديني. وأيضا أهميتها في حالة الإستخدام النفعي للنصوص قديما وحديثا.[5]

انتقل نصر في رسالته للدكتوراة الى حقل آخر من حقول التراث، وهو حقل التصوف والتجربة الروحية، والجانب الأخلاقي. ويمكن إدراك إستدعاء تراث التصوف وابن عربي تحديدا هو جزء من مواجهة الهجمة السلفية أيضا. إلا أن عدسة الباحث هنا اتسعت فمن دراسة مفهوم جزئي ــ المجازــ الى دراسة:" فلسفة التأويل"[6] عند محيي الدين بن عربي. ليس من خلال علاقة المفسر بالنص، بل اتسعت الرؤية لمحاولة الوصول الى القواعد الفكرية الرابضة خلف فعل التفسير والتأويل. وكانت منحته للدراسة بأمريكا فرصة، أن ينفتح على الدراسات اللغوية الحديثة ومناهجها. فكتب عن الهرمنيوطيقا، أوالتأويلية. في التراث الغربي والبحث عن تأصيلها في التراث العربي. إلا أن نصر بعد الإنتهاء من كتابته لرسالة الدكتوراة وموافقة مشرفه الثاني على الرسالة، أن يطبعها. أدرك أنه استغرق في شرح فلسفة ابن عربي وعرض جوانبها حتى أصبحت هي متن الرسالة، وأن قضايا تأويل القرآن عنده أصبحت هي الهامش. لكنه أيضا طوال الدراسة كان مشغول بدور المؤول في جعل النص ينطق بأفكاره المُسبقة، لكن بدأ يدرك دور النص القرآني في تشكيل رؤية وتصورات

---

[4]ــ كانت الكتب التي تم اكتشافها في نهايات الأربعينيات باليمن خصوصا كتاب القاضي عبد الجبار:"المغني". قد تم إعادة نشرها تحت إشراف الدكتور طه حسين عبر النشاط الثقافي لجامعة الدول العربية منذ سنوات قليلة قبل بداية نصر دراسته عن المعتزلة

[5]- سجل نصر رسالة الماجستير لدراسة"قضية المجاز في القرآن عند المعتزلة" وناقشها عام 1976م ونشرت ككتاب تحت عنوان:" الإتجاه العقلي في التفسير" في طبعتها الأولى عن دار التنوير، ببيروت 1982م. ويوجد تسجيل للمناقشة على مدونة "رواق نصر أبوزيد"

[6]– ناقش أبوزيد الرسالة في رمضان صيف 1981، ونُشرت بعد ذلك تحت عنوان "فلسفة التأويل" عن دار التنوير عام 1983م. ويوجد تسجيل صوتي للمناقشة بمدونة "رواق نصر أبوزيد"

ابن عربي ذاته. بل أيضا أدرك كيف أنه لطبيعة لغة ابن عربي المُكتنزة، والتي تخدع الباحثين بالوقوف أمام منطوق نصوص ابن عربي، دون الإلتفات الى المسكوت عنه في الخطاب، والى الكيفية التي يقول بها ابن عربي. وظلتا هاتان النقطتان تؤرقانه حتى عاد الى الكتابة عن ابن عربي في مقال صغير سنة 92 بمجلة الهلال عدد مايو:"قراءة المسكوت عنه في خطاب ابن عربي" ثم كتابه في نهاية الألفية:"هكذا تكلم ابن عربي"[7]. ونصر أدرك أيضا أن الإستخدام النفعي للنصوص موجود في التراث الصوفي أيضا.

أصبح السؤال الذي يؤرقه وقد تولد من الدراسات السابقة: هل هناك دلالة موضوعية للنص في الثقافة العربية خارج التحيزات الأيديولجية المُسبقة؟ هل يمكن تكوين تصور موضوعي للنص؟[8] وحاول من خلال وضع التراث المكتوب حول النص في موسوعتي السيوطي والزركشي في علوم القرآن بحثا عن مفهوم للنص. لكن نصر كان يتحرك من خلال المنظومة المعتزلية في العقيدة، ومن خلال جهود البلاغة العربية متمثلة في عبد القاهر الجرجاني من التراث مع استعارة مفاهيم غربية حديثة في التأويل عند "جادامر". لكن من منظور جدلية مادية بين الفكر والواقع. وأيضا منطلق من الجهود العربية الحديثة في مدرسة التفسير الأدبي للقرآن الكريم بجهود محمد عبده والشيخ أمين الخولي وتلميذه محمد خلف الله. فمس أسئلة، حول طبيعة الوحي وكيفيته، وطبيعة القرآن، وسؤال ما الإسلام؟ في محاولة لفتح المعنى والدلالة، والتي لم تخلوا هي نفسها من تحيز أيديولوجي، وان كان يسعى الى وضع الظاهرة الدينية تحت مجهر الدراسة "الموضوعية العلمية".

لكنه في هذه المرحلة إحتك مباشرة وفتح الحوار حول قضية قد أغلق الباب في التفكير فيها خلال عشرة قرون سبقت، عن طبيعة القرآن وماهيته، وأن كل عمليات التجديد التي تمت في العالم العربي والإسلامي تعتمد على نفس الأساس اللاهوتي/ العقيدي الراسخ بأن:" القرآن هو كلام الله القديم". بالإضافة الى استخدامه مصطلحات علوم اللغة والبلاغة الحديثة في مجال الدراسات القرآنية. منطلقا من أن القرآن رسالة لغوية من الله للبشر، وكونها من الله لا ينفي عنها أنها رسالة لغوية تخضع لقواعد البشر في التواصل والفهم والدراسة. ربطا بين الدراسات الإسلامية والقرآنية بالدراسة الأدبية للنصوص من خلال مناهج الدرس اللغوي وتحليل النصوص المعاصرة . دراسة النص في سياق تفاعله مع الواقع ومع التاريخ تَشكُلا وتشكِيلا، من خلال علاقة جدلية بين النص والواقع، معتمدا على التراث المعتزلي حول مفهوم خلق القرآن وحُدوثه. مفارقا ما هو سائد من التعامل مع النص القرآني كسلطة لإخضاع البشر لها، مُخفيَة ورائها سلطة بشر خلف أقنعة المقدس والمُطلَق. الى أن يكون النص ساحة رحبة للفهم الإنساني.

---

[7]– طبعته الأولى عن الهيئة المصرية العامة للكتاب 2002م

[8]– حاول في كتابه "مفهوم النص" مناقشة هذه القضية، الطبعة الأولى للكتاب فكانت في الهيئة المصرية العامة للكتاب عام 1990م. إلا أن الكتاب كان فكرة مقال طويل كتبه في منتصف الثمانينات في اليابان بعد مناقشاته مع طلبته في جامعة القاهرة فرع الخرطوم، لكن ضاع المقال، فأعاد كتابته ككتاب، وتقدم به ضمن أبحاثه للترقية لأستاذ مساعد عام 1987م

موظفا التفرقة التي أخذها عن "هرش" بين "Meaning" و "Significant" والتي ترجمهما الى المعنى والدلالة ثم فيما بعد الى المعنى والمغزى. للتفرقة بين المعنى الذي فُهم من النص في زمن ظهوره والذي نصل اليه بتحليل النص في سياقه التاريخي الإجتماعي واللغوي والثقافي. وبين مغزى هذا النص لنا في عصرنا وعملية المرور التي تحدث للنص في التجاوز من المعنى الى المغزى. فالتعامل مع القرآن كنص بدلالة كلمة نص المعاصرة وليس النص بالمعنى التراثي بمعنى الواضح وضوحا بيناً الذي لا يحتاج الى تأويل. بل النص كعملية تواصل لغوي بين مُرسل ومستَقبل من خلال شفرة في سياق.

في هذه الفترة من نهاية الثمانينات. بدأ ينتقل لدراسة الواقع المُعاش مباشرة، بدراسة ظواهر معاصرة مثل:"نقد الخطاب الديني"، وطرقه في تأويل النصوص الدينية سواء الأولي منها أوالنصوص الثواني وكيف يهدر الخطاب الديني المعاصر السياق بمستوياته المختلفة، في تعامله مع هذه النصوص، و الظواهر المختلفة. وكذلك نقد خطاب اليسار الإسلامي كجزء من نقد الذات.[9] بل اتسعت عدسة الباحث من التركيز على الخطاب الديني لتغطي الخطاب العام السائد خلال القرنين الماضيين، فدرس "مشروع النهضة بين التوفيق والتلفيق" على أن الخطاب الديني هو صورة من أزمة الخطاب العام وتأكد داخله الإدراك الذي تكون خلال دراسته الجامعية بأن مشكلة التقدم والتخلف لها شروط أخرى تحكمها ليست مقتصرة على مسألة الدين والعقيدة كما تصور من نشأته على كتابات القطبيّن. وأصبح بحثه عن المعوقات الفكرية التي تعيق خطاب النهضة عموما وخطاب التجديد خصوصا وتجعله يقع في أسر الخطاب النقيض له وتجعل ثماره ضامرة مقارنة بالخطاب التقليدي السائد الذي يجتر تراث طويل من التقليد يتغذى عليه. وتزامن مع حالة النقد هذه التي نقد فيها مشروع أستاذه حسن حنفي، كجزء من نقد الذات الذي أعاد فيه النظر في موقفه من تراث المعتزلة، وأدرك محدودية مفهوم الحرية عندهم وارتباطه بزمانهم كحرية الإنسان في مواجهة القدر. وليست الحرية بمعناها السياسي والإجتماعي الإقتصادي لعصرنا.

آثار محنة القضية

كانت محنة القضية والمحاكمة التي مر بها نصر. في ظل حالة الإحتقان والإستقطاب التي كانت تمر بها مصر أوائل تسعينيات القرن الماضي. أن أطاحت بمدرسة في الدراسات القرآنية كان يبذر بذورها، ويرعى زهورها، داخل كلية أداب القاهرة. فتعطل نصر الأستاذ. وكادت أن تطيح المحنة أيضا بنصر الباحث، بأن تستدرجه لساحة السجال. فبخروجه الى جامعة "لايدن" فقدنا الأستاذ وبستان زهور مدرسته لكن تم الحافظ على نصر أبوزيد الباحث من التعطل. لكن المحنة

[9]– وهي الدراسات الممثلة للفصلين الأولين من كتاب "نقد الخطاب الديني" الفصل الخاص بالخطاب الديني المعاصر آلياته ومنطلقاته الفكرية. نشر في كتاب قضايا فكرية السنوي العدد الثامن 1989م تحرير محمود أمين العالم. والفصل الثاني دراسة التراث بين التأويل والتلوين: قراءة في مشروع اليسار الإسلامي. وهو نقد للذات من خلال نقد مشروع أستاذه حسن حنفي. نشر بمجلة ألف للبلاغة المقارنة بالجامعة الأمريكية بالقاهرة العادد العاشر 1990م، ثم نشرت الدراسات في كتاب نقد الخطاب الديني. بدار سينا للطباعة والنشر بالقاهرة 1992م

ولدت داخله سؤال:"لماذا حدث كل هذا؟ ولماذا يستطيع خطاب التقليد السلفي من تهميش خطاب التجديد والإنفتاح؟ فها هو نفسه على الشاطيء الشمالي من البحر. يستدعي تجربة أبي حامد الغزالي وابن رشد، وكيف استطاع خطاب الغزالي أن يُهمش خطاب ابن رشد في الثقافة العربية؟ وفي قلبها بحثا عن أسباب فشل خطاب التجديد وضمور ثماره بعد قرن ونصف من محاولات التجديد في الخطاب العربي الحديث والمعاصر. وكيف أن خطاب التجديد في الفكر الديني يتحرك داخل نفس البناء اللاهوتي القديم.

بدأ يدرك نصر أن مفهوم النص بالمعنى المعاصر ذاته، الذي دافع عنه خلال العقدين السابقين، قد يكون هو في ذاته بذرة الإشكال. فبعد أن أعاد النظر في تصورات المعتزلة[10]، وكذلك أعاد النظر في دراسته عن ابن عربي. أعاد النظر في تصوره طبيعة القرآن كنص. او حسب تعبير محمد أركون[11]:"الظاهرة القرآنية" القرآن كخطاب شفاهي قبل عملية الجمع والتدوين وتقنينها، في مصحف بمراحلها المختلفة. ليس بالمعنى التقليدي من قراءة القرآن في سياق ترتيب النزول وليس ترتيب المصحف الحالي. بل ان النظر الى ماهية القرآن كنص فقط، تجعل المفكر المسلم القديم والمعاصر على السواء، يبحث عن رفع التباين والتناقض المُتصور حول جوانب القرآن. لأن النص ذو المصدر الواحد لا يجب أن يكون به تناقض أو تباين. لكن القرآن كخطاب بين متكلمين، به أصوات، الصوت الإلهي وصوت النبي عليه السلام، وأصوات المؤمنين والمشركين وأهل الكتاب. بل هناك "مود" ونمط، للخطاب، فالكلمة الواحدة تتعدد دلالتها في الخطاب حسب "مود" الخطاب. وهذا التعدد، يتم اختصاره وتحجيمه، في حالة تحويل الخطاب الى نص.

في نهايات القرن الماضي، تركزت عدسة نصر القرائية، من قراءة الخطاب العام السائد، ومن حتى صورته في الخطاب الديني، ليركز بؤرة عدسته على القرآن وعلى التعامل معه، تركيزا على الدراسات القرآنية. وبدأ تبلور هذا في محاضرته لكرسي "كليفرنجيا" للحريات. [12]عن القرآن كتواصل بين الله والإنسان. فيها عاد الى سؤال ما القرآن؟ مُركزا على البعد الرأسي من عملية التواصل بين الله والإنسان وطبيعتها. فالمسلمون اتفقوا على أن القرآن:" كلام الله الذي أوحي به الى النبي

---

[10]– مرحلة النقد الذاتي ونقد تراث المعتزلة ذاته الذي كان نصر منبهرا به، ويتضح شكل هذا النقد للمعتزلة في كتاباته في هذه الفترة لكن يمكن اتخاذ حواره المنشور بجريدة الأهرام في 31 مايو و5 يونيو 1991م نموذج لنقد الفكر الإعتزالي وارتباط مفاهيمه بسياقها التاريخي كما ينظرون الى مفهوم الحرية وانها الحرية في سياقها الديني في مواجهة الجبر وليس الحرية بمعناها الأشمل الذي نتحدث عنه في عصرنا بمعناها السياسي الإجتماعي الثقافي.

[11]– قدم نصر قراءة لمشروع محمد آركون في جانبه الذي يحاول الوصول الى خصوصية اللغة الدينية. وقد اعتمد نصر على ما توصل اليه أركون من سعي اللغة في القرآن من تحويل التاريخي والإجتماعي والتسامي به الى مُطلق ثم تعيد توليد التسامي و المطلق وتضيقه على التاريخي والإجتماعي في كل مرحلة. لكن نصر استخدم المفاهيم اللغوية التي كان يتجنبها أركون كنوع من الترضيات، ويمكن ملاحظة ذلك في دراسة نصر:"القرآن: العالم بوصفه علامة" التي نشرت بمجلة ألف عدد 15 عام 1995م ونشرت ضمن كتاب النص السلطة الحقيقة، طبعة المركز الثقافي العربي 1995م. ودراسته لمشروع أركون التي نشرت:" اللغة الدينية والبحث عن ألسنية جديدة قراءة في فكر محمد أركون". نشرت بمجلة الناقد عدد 74 عام 1994م، وضمن كتاب:" الخطاب والتأويل" طبعة المركز الثقافي العربي ببيروت،عام 2000م

[12]– ألقاها باللغة الإنجليزية 27 نوفمبر 2000م
The Qur’an: God and Man in Communication
ولم يتم ترجمتها او نشرها في أي من كتبه

محمد باللغة العربية على مدار ثلاثة وعشرين عاما". وان اختلفوا فيما بينهم ان كان هذا الكلام قديم. أم مخلوق/ مُحدَث. لكن نصر بدأ مما هو مُتفق عليه. وما هو مُتفق عليه يحتوي على عناصر ثلاثة: كلام الله، ثم القرآن، فالوحي. وكلام الله لا نهاية له، والقرآن أحد مظاهر كلام الله. العنصر الثالث هو الوحي: وهو قناة الإتصال من الله الى البشر. وقد تحدث القرآن عن أشكال ثلاثة لوحي الله الى البشر. لقد انتقل نصر من السؤال القديم: حول هل القرآن قديم أم مخلوق؟ الى سؤال: ما هو القرآن وما هي طريقة التواصل وطبيعتها؟ للقرآن محتوى عبارة عن رسالة إلهية من الله الى البشر. وأيضا للقرآن لغة تتجسد من خلالها هذه الرسالة الإلهية، فاللغة العربية ببشريتها، يستخدمها القرآن بطريقة خاصة لإيصال رسالته. من خلال تركيبة معينة وبنية مميزة في إستخدام هذه اللغة البشرية. فالإلهي يتجلى في الإنساني، حسب قوانين عمل الإنساني ولكن بطريقة خاصة، هي التي تجعل للقرآن لغته، أو طريقة خاصة في نَظَم اللغة العربية.

وأخذ في نقد طُرق تعامل المسلمين مع القرآن قديما وحديثا. مما تجلى في مشاركته في الإحتفال بمئوية الكواكبي(1849ــ1902)م في دمشق عام ألفين 2003 [13]دراسة لمدرسة التأويل الأدبي للقرآن التي امتد بجذورها الى المعتزلة والفلاسفة المسلمين والى جهود عبدالقاهر الجرجاني ت(1107/471م)، الى صورتها الحديثة في جهود محمد عبده(1848ــ1905)م وجزئيا طه حسين(1889ــ1973)م فمدرسة الشيخ أمين الخولي(1895ــ1966)م وتلاميذته: محمد أحمد خلف الله (1916ــ1998)م وشكري عياد(1921ــ1999)م و عائشة عبد الرحمن(1913ــ1998)م. واقفا على المعضلات التي تواجه هذه المدرسة الذي يعد نصر نفسه أحد حلقاتها. وفي ندوة باريس[14] بنفس العام قدم ورقة:"نحو منهج إسلامي جديد للتأويل". استكمل نقد الجهود المعاصرة في التعامل مع القرآن، من محمود محمد طه(1909ــ1985) في السودان، والذي حاول التمييز بين رسالتين في الوحي رسالة أصلية هي الرسالة المكية، وأخرى مدنية. وأشار نصر الى أن إشكال طه أنه يفهم علميّ المكي والمدني والناسخ والمنسوخ من علوم القرآن، خارج إطار التاريخ الإجتماعي السياسي الثقافي للمسلمين. ومحمد شحرور ولد(1938)م في سوريا. رغم إختلاف أسلوبه عن محمود طه: فهو يرى أن المصحف يحتوي على جانبين جوهر ثابت هو القرآن ومصدره النبي وهو المتشابه الذي يحتاج الى الراسخين في العلم، لفهمه وتأويله، والجانب الآخر هو الواضح، التاريخي المؤقت، القابل للتطور. إلا أن شحرور يتعامل مع اللغة ككائن هلامي بلا معجم تاريخي ودلالات إستعمالية. مما يجعله يستنطق القرآن بمعاني ودلالات مُحددة سلفا. وجمال البنا(1920ــ2013)م،الذي يميز تمييزحادا بين الإسلام والمسلمين، من حيث ثبات وتعالي الإسلام الذي تم تلويثه من خلال اختلاط المسلمين بالحضارات القديمة، ويتعامل مع النصوص على أنها بلا سياق إنساني، وأنها مفارقة للتاريخ وللثقافة الإسلامية. مما جعل قراءته

[13]– نُشرت الدراسة ضمن أعمال الندوة عن مئوية الكواكبي، المعهد الفرنسي للشرق الأوسط فرع الدراسات العربية دمشق 2003م ونشرت بمجلة الكرمل عدد 50 تحت عنوان القراءة الأدبية للقرآن:إشكالياتها قديما وحديثا. وقد نشرت ضمن كتاب نصر أبوزيد "التجديد والتحريم والتأويل" طبعة المركز الثقافي العربي، بيروت،2010م بعنوان إشكالية تأويل القرآن قديما وحديثا. وهناك ترجمة انجليزية لها بعدد مجلة ألف بالجامعة الأمريكية بالقاهرة. عدد 23

[14]– نُشرت ضمن أعمال الندوة، ونشرها مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان ضمن كتابه عن أعمال الندوة. ولم تُنشر في أي من كتب نصر أبوزيد.

إنتقائية. وخليل عبد الكريم (1930ــ2002)م بمصر، الذي انشغل بالنقد التاريخي، والذي لم يتجاوز عنده منهج نقد الرواية التراثي، ويوظفه لأغراض براجماتية مما يوقعه في إنتقائية واضحة للنصوص التراثية، فيهمل ما يتعارض مع أهدافه.إلى حسن حنفي ولد(1935) من مصر وفضل الرحمن(1919ــ1988)م من باكستان. وتأكديهما على الدور الإيجابي للنبي في عملية الوحي. إلا أن سؤال كلام الله وطبيعته ظل غائبا عن جهديهما.

لمس نصر بصورة عامة ما ناقشه في محاضرته السابقة. بحثا عن منهج إسلامي جديد للتأويل."تجديد الخطاب الديني لا يمكن أن يكون تجديدا ناجزا إذا ظل التعامل مع النصوص التأسيسية ــ القرآن والسنة ــ ينطلق من نفس الأسس اللاهوتية/ الكلامية، التي أستقرت في الفكر الإسلامي منذ القرن الثالث الهجري/العاشر من الميلاد. فبدون الإستعادة للسؤال المغيّب والمُحبَط والمكبوت، سيظل التأويل أداة لقراءة الحداثة في النصوص، لا لفهم النصوص لذاتها". لمس نصر سؤال ما معنى أن القرآن كلام الله؟ وأسئلة تتفرع عنه: عن طبيعة الوحي وكيفيته وما إذا كان تواصلا باللغة أم تواصلا بالإيحاء والإلهام؟ وبعد عرض جهود السابقين في الجانبين مال هو الى أن القرآن كوحي، كان تواصلا بالإيحاء والإلهام. وانتقل من النظر الى القرآن كنص. التي دعى وأصّل لها. إلى النظر الى القرآن كنصوص، لطول سنوات الوحي وتعدد المناسبات والوقائع المرتبطة بأحداث في الواقع. مما جعل القرآن في تركيبة بنيته مجموعة من النصوص، ذات سياقات.

2004 من النص الى الخطاب

في السابع والعشرين من مايو عام ألفين و أربعة. في محاضرته كأستاذ كرسي ابن رشد في جامعة الإنسانيات "بأوترخت" التي اختار لها عنوان:"إعادة تعريف القرآن".[15] انتقل نصر من تركيزه على المحور الرأسي في عملية التواصل بين الله والإنسان عن طريق التواصل وحيا بالنبي عليه السلام. استكمل في محاضرته هذه محاضراته السابقة بالتركيز على الجانب الأفقي، لهذا التواصل بين الإلهي والإنساني. ليس بالمعنى التقليدي لهذا الجانب من إهتمام بعملية جمع وتدوين القرآن بمراحلها المختلفة، على أهميتها. ولا أيضا بمعنى عملية التبليغ من النبي الكريم، للرسالة. ودور المتلقين لهذه الرسالة فهما وتفسيرا وتأويلا. فكل هذا على أهميته. كان هو ما أستقطب جهود الكثيرين. إلا أن نصر قصد بالجانب الأفقي: ذلك الجانب الرابض المُتضَمن في بنية وتكوين القرآن الذي يظهر في عملية التواصل، والذي يمكن إدراكه اذا

[15]– نُشرت ترجمة عربية للقسم الخاص بالقرآن من المحاضرة، خلال مشاركة نصر في ندوة بالأسكندرية عام 2006م وهو نفس القسم الذي نشر ضمن كتابه:" التجديد والتحريم والتأويل". المركز الثقافي العربي، ببيروت، 2010م في فصل "مقاربة جديدة للقرآن: من النص الى الخطاب. نحو تأويلية إنسانوية. وقد قدم نصر ضمن المحاضرات الأربعة كباحث مقيم بمكتبة الأسكندرية في ديسمبر 2008، وكانت المحاضرة الختامية بعنوان" نحو إعادة تعريف القرآن: من النص الى الخطاب" والمحاضرات موجود تسجيلات فيديو لها على موقع" رواق نصر أبوزيد" على النيت.

انتقلنا من التركيز على القرآن كنص مكتوب، الى القرآن كخطاب. التركيز على الظاهرة القرآنية بتعبير محمد أركون، قبل تدوين القرآن في كتاب. وهو الفارق بين القرآن/المصحف، الصامت وبين القرآن/الخطاب، الناطق.

فالتركيز على القرآن كنص فقط أطلق الباب واسعا لعملية التأويل وإعادة التفسير، وأيضا تتيح الإستخدام الأيديولوجي المُغرض ليس فقط لمعاني القرآن ولكن التقسيم الإيديولوجي للبنية القرآنية ذاتها. متخفية وراء رؤى لاهوتية/كلامية، في سبيل البحث عن وحدة المضمون والمحتوى القرآني. مما أخرج قراءات، موجهة أساسا، بأيديولوجيا القاريء والموؤل السياسية أو الثقافية أو العقيدية أو المذهبية. التركيز في التعامل مع القرآن كنص فقط. يُنتج تأويلية شمولية أو تأويلية سلطوية كلتاهما تزعم إمكانية الوصول الى الحقيقة المطلقة. وما ساد تراثنا في التعامل مع القرآن كنص فقط يمكننا الكشف عن معناه بالتحليل الفيلولوجي/البنيوي. كما فعل المتكلمون/اللاهوتيون من خلال مفاهيم المُحكم والمُتشابه. والفقهاء من خلال مفاهيم مثل الناسخ والمنسوخ. وهما النسقان اللذان سادا تاريخنا ومازالا حتى الآن في التعامل مع القرآن. أديا الى تحويل القرآن الى ساحة نزاع أيديولوجي ومذهبي، أدى الى التلاعب بمعانيه لأهداف تبريرية لا تخلوا من نوايا حسنة. وكثير مما بدا للمتكلمين والفقهاء تناقضا واحتاج منهم الى منهج تأويلي لرفعه. ما هي إلا مواقف وترتيبات لا يمكن فهمها إلا بالعودة الى سياقها الخَطابي، سياق التحاور والتساجل والجدال والإختيار والرفض... سياق الخطابات وليس سياق النص.

ودعى نصر الى تأويلية إسلامية جديدة للتعامل مع القرآن. تأويلية مُنفتحة تربط المعنى الديني والبحث عنه. بمعنى الحياة. معنى الحياة بطبيعته الإنسانية القائمة على الإختلاف والتعدد البشري. تأويلية تخرج من سجن التركيز فقط على الطبيعة النصية للقرآن. وما يستدعيه مفهوم النص من أنه: بنية مستقلة و مؤلف وقصد للمؤلف وسياق تأليف وقاريء ضمني مُتصور، وتناص ووحدة للنص. ومفهوم النص هذا تغذيه علوم، كعلم الكلام/اللاهوت والفلسفه والفقه، لأنها تركز على المؤلف ومقصده، وفي هذه الحالة تكون أداة التأويل هي المجاز، والمجاز يتعامل مع الكلام على مستوى الجملة. وهذا يشير الى أن انفتاح المعنى عند الصوفية، حدث بإنتقالهم من محدودية مفهوم المجاز الى رحابة واتساع مفهوم الرمز، وبتركيزهم على دور المتلقي للنص، وتجربته في إكتشاف دلالات ومعاني القرآن، وأصبح القرآن والكون والإنسان كتب من الله تتجلى فيها حقيقة قدرته وآياته الدالة الى البشر. وكذلك انفتاح واتساع المعنى القرآني عند المُحدَثين بالإنتقال من مفهوم المجاز الى توسيع مفهوم التمثيل والتصوير عند محمد عبده او عند أمين الخولي وسيد قطب. كمحاولة للتجاوز من أسر محدودية مفهوم المجاز، ومحدودية دراسة القرآن جملة جملة أو آية أيه. لكن نصر طالب بالإلتفات للطبيعة الخطابية المنطوقة للقرآن، وضرورة التحليل الخطابي له أولا. ففي تحليل الخطاب نبحث عن مُتكلم وليس مؤلف. وتعدد أصوات المتكلمين ــ طبعا القرآن كله كلام الله ــ لكن تظهر من خلاله أصوات متعددة، صوت النبي، أصوات المشركين، والمؤمنين، والمنافقين وأهل الكتاب. وهناك مخَاطبين، مٌخاطب مباشر هو النبي عليه السلام ومخاطبين ضمنيين. وهناك مود خطاب ونمط خطاب

سواء: تهديد، بُشرى، تقرير، اعتراض، نفي، إزاحة...الخ. وبعد تحديد بنية الخطابات القرآنية ووحداتها الخطابية. نشرع في التحليل النصي لهذه الوحدات. فكل خطاب نص وليس كل نص خطاب.

في محاضرته الرابعة كباحث مقيم بمكتبة الأسكندرية، في ديسمبر 2008م وكانت بعنوان "إعادة تعريف القرآن". بعد محاضرة عن التأويل اللاهوتي وأخرى عن التأويل البلاغي، و وثالثة عن التأويل الصوفي. عرض نصر لأهمية الإنتقال من التركيز على الطبيعة النصية للقرآن الى الطبيعة الخطابية وأعطى نماذج وأمثلة، لذلك وكيف أن العديد من المشكلات التي اختلف فيها أجدادنا لها إجابات من خلال هذه النقلة. إلا أنه أضاف مفهوم نقطة البحث عن "الرؤية القرآنية للعالم". والتي تناولها بعد ذلك في محاضرته الإفتتاحية لمؤتمر:"السياقات التاريخية للقرآن" الذي انعقد بابريل 2009م بجامعة "نوتردام" الأمريكية، ومحاضرته بجمعية ألوان الثقافية، بنيويورك في نفس الشهر. وكان السؤال الذي يشغله: هل من كل هذه المداخل المختلفة التي تعاملت مع القرآن، المدخل اللاهوتي بحثا عن عقيدة، والمدخل الفقهي بحثا عن تشريعات تُنظم الحياة والمدخل اللغوي البلاغي، بحثا عن إعجاز القرآن وتفرد بناءه اللغوي والبلاغي والمدخل الفلسفي بحثا عن رؤى فلسفية للحياة وللعالم والمدخل الروحي الصوفي، بحثا عن أخلاق، ومدخل المقاصد الكلية للقرآن والشريعة، بحثا عن قواعد كلية هادية لإستخراج أحكام ومقاصد. وهي مداخل جزأت الظاهرة القرآنية وكانت في فترات الإزدهار تغذي بعضها البعض لكنها في عصور الضعف والتراجع أصبحت، تضع جدران بين بعضها البعض. فهل توجد رؤية كلية للعالم داخل الخطاب القرآني؟ تتشكل من هذه المداخل ومن التعامل مع القرآن في بنيتيه: بنية ترتيب التلاوة الحالي وكذلك بنية ترتيب النزول على مدى أكثر من عقدين من الزمان؟ وهذا هو السؤال الذي تركنا نصر أبوزيد وهو يفكر فيه، تركنا لكن يظل سؤاله حي يقف أمامنا، يبحث عن باحثين فيه وعن إجابات، فهل سيظل السؤال معلقا حائرا لمدة طويلة؟ وهذا هو سؤالي.

والله أعلى وأعلم